الاذاعة في المصح ..

قصة

بقلم عبد الهادي البكار

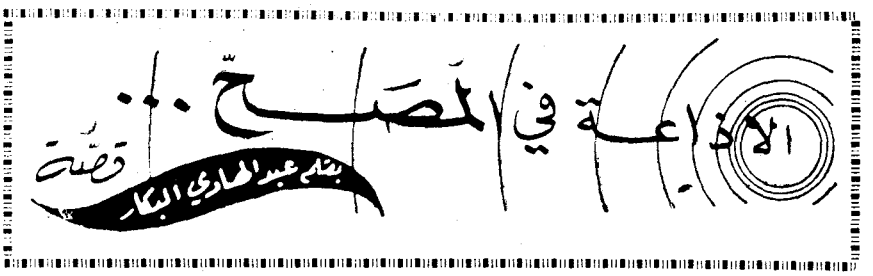

شيء محزن ان ينقلب اللون الأبيض إلى لون أزرق .. وأحزن منه ان تفاجأ عيناك بوجه جميل – كنت رأيته من قبل هاشاً باشاً – وقد طلي بألم كثيف .!

وانا الليلة حزين ، فقد فوجئت بانقلاب سريع ، كان بين عيني وعينيها، ذلك اني اعرفها صديقة عزيزة على اختي :

اما النهار ، فقد امضيته كله فرحاً مرحاً ، ابتسم للرائح والغادي ففي الصباح ، ناغيت أمي ، ورقصت لها ، ودغدغتها – أمي تغار – وتناولت أكلاً كثيراً !

وعند الظهيرة قلت لصديقي عادل ان يذهب معي الى فيلم عربي من تمثيل إسماعيل ياسين ... ووافقني عادل دهشاً لهذه الدعوة الغريبة ...

واثناء عرض الفيلم صفقت لنكتة حلوة من اسماعيل ياسين .. وقهقهت كما لم أقهقه من قبل .. وكانت امامنا فتاة ، تلبس لباساً انيقاً ، ضحكت عدة مرات من تعليقاتي على النكات !

ولما كانت الساعة السادسة ، قصدت دار الاذاعة ، فاذا بالفنانين والفنانات وبعض زملائي المذيعين ، يستعدون للخروج من الدار ..

– ماذا ؟

واجابني زميل :

– الاذاعة تقيم حفلة ترفيهية للمصدورين في مصح ابن النفيس ..

وكنت من قبل قد حضرت بعض هذه الحفلات، وسرني الاستقبال الحار ، ورأيت شيئاً من الكبر ان اكون انا عريف الحفلة ، فتتجه اليّ كل الانظار واتفنن في فتح فمي لإخراج كلمة ... انتقيها انا .. وينصت اليها الجميع !..

ولأن اللون الأبيض كان يعطيني الكثير من التفاؤل والمحبة والحياة ، فقد رغبت في الذهاب الى المصح ... ليتني لم اذهب الى المصح ..

حين احتوانا الباص، أجلسنا الفنانون في المقاعد الاولى– فنحن مذيعون والباص مكتوب على زجاجه وجنباته من الخارج : (الاذاعة السورية)، وهاتان الكلمتان زادتا من احترام بعض الناس لي ... فمرورنا في شارع (فؤاد الأول) ونحن في المقاعد الأولى في باص الاذاعة ، شيء جميل !..

●

وقف الباص امام بناء المستشفى الكبير ..

يا لهذه السروات المتعاليات الحانيات على بعضها ...

ويا لهذه الضجة من الموسيقيين ..

ويا لهذه الانوار المختبئة في الداخل ..

ان السماء رغم ما فيها من غيم مكدس ، جميلة ..

وغامضة كضباب قريتي ...

ترى .. اين سافرت النجوم ؟

ويا اضواء النوافذ، يا شلالاً من الزهر ..

ان العالم كله يغني ... واصوات المرضى من الداخل ليست حزينة !..

كأن عينيّ تريدان ان تكونا أكبر مما هما عليه من اتساع ،إذن لتضاعفت المسافات التي تحتويها ...

ليت لي إكليلاً من العيون ، يلتف براسي ..

... وصعدت الدرج الخارجي ، بخفة ، مشدود الياقة .

... وما كدنا نطل على البهو الكبير الذى يضم المصدورين ، حتى تعالى الهتاف والتصفيق ! ..

اننا لا نأتي الى المستشفى إلا ويأتي معنا الغناء ، وتأتي الموسيقى ، فلماذا إذن نستغرب هذا الاستقبال الحار من المدير والاطباء والممرضات والمرضى ؟؟

ان المرضى يحبونني .. ففي حفلة ، في السنة الماضية ، وقفت امامهم ، اقدم لهم الفنانين بلهجة إذاعية جديدة ... ونظرت – وأنا خلف قضيب المايكروفون – إلى بعض المريضات نظرة خاصة ، فيها معنى كثير ، اعتقدت اني بها إنما اغرس في نفوسهن الميؤوسة بعض الأمل !.. ولي تراكيب لغوية ، تثير احاديث غنية بالنقد ، والمناقشة بين مؤيد ومخالف، احاديث تملأ الفراغ !..

ونفسي اليوم ثائرة بالمحبة ، معجونة باللون الأبيض ، فلماذا لا اكون عريف الحفلة ، فانقل اليهم شيئاً مما في نفسي ؟

وصفقوا لي حين تحركت آخذاً طريقي نحو المايكروفون ... ومن عادتي ان اوزع النظرة على الجميع ...

– سيداتي ... آنساتي سادتي :

وتسمرت عيناي في مكان ما بين المرضى ... وصقعت البسمة على شفتي .. واحسست بلفحة من البرد تمتص شفرتي اذني ... وكأنني رأيت لوني قد صار اصفر باهتاً كلون المحتضر !.. واتممت بلهجة باردة :

– يسر الاذاعة السورية ان :

وشعرت بجلدة رأسي تنكمش ، فتحرك الشعر ..

وبالعالم كله مبسوطاً ... ليس فيه وهدة ولا نجدة ! .. وكما تتجمع قطرات المياه في اسفل الثوب المغسول المنشور على حبل ، لتتسرب منه نقطة ... نقطة .. كذلك كان مرحي قد وصل اصابع قدمي !..

– تقدم لكم في هذه الليلة :

وفي مكان ما بين المرضى ، ظلت عيناي متعلقتين بشيئين مسدول عليهما جفنان محدبان بلون ازرق ...

كيف ييبس الدمع ؟

ماذا تري كان ، لو لم تكن هناك جفون للعيون ؟ احياناً .. تبكي العيون .. من غير دمع ، فيأتي البكاء .. أمرّ .. فليس كل الناس يرون الدمع الجامد ، الغافي تحت الجفون !

– المطربة الآنسة (كروان) ..

وصفق المعجبون بكروان ..

– والمطرب (رفيق شكري) ..

وتعالى الهتاف بحياة المطرب رفيق شكري ...

– والمطربة السيدة (نورهان) ..

وصفق الشباب المراهقون من المرضى

– والمطرب (فتى دمشق) و .. و ..

...ولم تتحرك يداها لمطرب او مطربة...وظل جفناها منسدلين على دمع جامد !

ورجعت الى مكاني .. وانتشى المصدورون ، وقام صغير من بينهم وشرع يرقص في الحلبة الفاصلة ما بيننا وبين المرضى ..

ان لحظة واحدة يغفر فيها المرء للعرس ان يظل المحتفلون فيه يغنون – بينما يموت بينهم واحد – ... هي هذه اللحظة فقط !!

... واجادت المطربة كروان .. اجادت كثيراً.. واندمج الموسيقيون.. ونسي الكل انهم في مصح المصدورين يزوره الموت بدون موعد !

حتى المرضى .. المرضى المربوطون بموعد دائم ليس له مكان في الزمان مع الموت ، فقد غابوا مع معاني الاغنية :

ياه يمه وانا عَ العين

شافني حسين وغمز لي بعين .. ياه .. ياه ..

صوب قلبي بسهمو يمه

صاب قلبي ... آه ... آه ..

●

ولكن .. أين هم من هذه الحكاية ؟ وهذه التأوهات ، يتوهمون بتصور الامل .. بتجسيده الى حركات خيالية ...

ان الشيء القابع في مكان ما بين المرضى ، لم يتحرك .. وكان الوجه يغمق لونه الازرق ... ما ابشع ان ينقلب الانسان الى لون لا يحبه !

– هل لدى المريضات مرايا ؟

واجابني طبيب وهو يسكت عن مشاركته البقية في الغناء :

– نعم ... ولكن لماذا هذا السؤال الآن ؟

●

– سؤال عابر !

وعاد الطبيب الشاب يشارك البقية الغناء ..

ولم يكن سؤالي عن المرايا عابراً .. فصاحبة ذاك الوجه الازرق الجميل ، القابعة بين المرضى ، صديقة عزيزة على اختي ..وكانت قد زارتنا السنة الماضية – في قريتنا دوما – اسبوعاً كاملاً ، مع امها ، ونامت في دارنا .. وسهرنا معاً .. وكان وجهها بلون الورد الابيض .. وهي في العشرين ، في سني ..

وكنت مرة احاول رسم لوحة زيتية ، لجدول .. ونشجر .. وسماء .. فدخلت علي الغرفة ، ولازمتني نصف ساعة .. وساعة .. وقالت :

لماذا تكثر من استعمال اللون الازرق ؟

– احبه !

– أنا أتشاءم منه !

– ولمَ ؟

– لا ادري .. كلما رأيت لوناً أزرق بانت لي الدنيا معتمة ..

واذكر أنها أمسكت باللوحة .. ومزقتها .. ضاحكة :

– عليك من الان وصاعداً ان تستعمل ألواناً أخرى ، مفرحة ...

وكان عليّ ان احترم رأيها ، فهي استاذة رسم ، ولها لوحات عرضت في معرض الفنون الجميلة السوري الأول ، ونالت إعجاب كل من رآها .. وكثيراً ما جلسنا في ذلك الاسبوع ، من السنة الماضية ، تضرب هي العود . وأغني أنا وأختي ، وترقص امها .. وتضحك أمي .. حتى الصباح ..

وعندما كنا في ساعة وداعهم إلى (دمشق) . شددتُ على يدها ، وشَدتْ على يدي ، وهمست أمي في أذن أختي :

– والله «لابقين» لبعض!..

وسمعتُ ذلك ، فابتسمت .. وسمعتُ انا الآخر ، فشددت اكثر على يدها .. وسمعت امها فتجاهلت أنها سمعت ، واكتفت ببسمة رضية !..

.. وعدت الى الطبيب :

– ألا ترى معي انه من الواجب ان تُمنع المرايا من المستشفيات ؟

وكان صوتي منخفضاً .. فلم ينتبه الطبيب الشاب المنتشي ..

... وانتهت الوصلة الاولى .. ولم تتحرك صاحبة الوجه الأزرق .. وحين أعلن مدير المصح عن استراحة قصيرة ، مشيت بضع خطوات ، فكنت أمامها !.

والتفتُ فاذا بالمرضى يحملقون فيّ ، يتهامسون ...

– مساء الخير ... أ ...

– ...

– أنا لم أكن ادري ...

ورفعت وجهها الحلو ، الازرق ، وقالت :

– كيف أختك قمر ؟

– تسلم عليك ..

– ...

– ا ...

..

– ان استطيع ان أقف طويلاً معك .. كي لا تتعبي .. أتمنى ان اراك قريباً خارج المصح .. في – دوما – مثلاً !

– في غرفة الرسم ؟

– ..

– ألا زلت تحب اللون الازرق ؟

– كيف الوالدة ؟

وقتَ اشتداد المرض فقط يزداد اللون الازرق في وجهي !...

– أتريدين شيئاً من الشام ... سازورك غداً ..

– أتذكر يا عبد .. كنت أتشاءم من اللون الازرق !

وكان صوتها حزيناً يزدرده قلبي ، فيغص بكل حرف من الكلمات .. فوجهها لا يزال الجمال غافياً عليه .. وعيناها الخضراوان ما تزالان تشعان مغناطيساً يجذب حتى الاشياء الثقيلة النوع !

– منذ متى ؟

واجابتني بلهجة مخنوقة :

– منذ شهرين ...

– ولماذا لم تخبرونا ؟..

.. وكاد رأسها الصغير يهوى ، فتمالكت نفسها بالسكوت !

.. ورجعت الى مكاني بين الاصحاء !.. وبقيت هي مطرقة الرأس ..

ورجوت زميلا ان يأخذ مكاني في تقديم الاجزاء التالية من الحفلة ..

وبينا كان الجميع يغيبون في معاني أغنية ثانية للمطرب رفيق شكري سألت مدير المصح :

– ما درجة مرض تلك ؟

وأشرت نحوها إشارة خفيفة ..

– من سيء الى اسوأ ، فهي الان برئة واحــدة .. ولكن الله لطيف بعباده ! ..

وما كاد ينتهي من جملته ، حتى كان اثنان بثوبين أبيضين ، يقتربان منها ، ويمسكان بيدها .. ويقودانها الى الداخل .. وهي تسعل سعالاً قوياً.

وأشار المدير الى طبيب ، فلحق بها .. وغاب في ظلام الممر .. واما رأسي ، فقد كانت به دقات رتيبة كدقات (المنبه) .. وكأن شيئاً يريد ان ينطلق من صدغي ! وعدت إلى كل الصور التي كانت تجمعني بها في القرية في ذاك الاسبوع ، من السنة الماضية ...

تلك .. تلك هي أصابعها تنتقل بخفة ،ضاغطة على اوتار العود ،في الليل.

وذاك صوتها يرن في مسمعي ، يحدثني عن الامـــل الأخضر .. وعن حاجة الشباب الى التفاؤل المستمر .. وذاك هو الشلال الكبير .. كادت تهوي معه وهي ضاحكة !..

وتلك هي لوحاتها الكثيرة .. بألوان حمراء،وخضراء وصفراء زاهية.. عن الربيع وقبلة أم لطفلها .. والشمس المشرقة ..

وتلك هي بسمتها الحالمة وهي تقص على اختي احلام الغد ، أذكر ان اختي سألتها :

– وماذا ستسمين ابنك ؟

– دوفنشي !

– تقصدين ... محمد دوفنشي :

وكاد يغشى عليها من الضحك !

●

وانتهت الحفلة ... وسكر المرضى البــاقون بالسرور .. وانهالت علينا كلمات الثناء !..

ولمنا الآلات ..

ولما كنا في الباب ، ادركنا الطبيب الذي لحق بها .. وغاب في ظلام الممر ، فاذا بوجهه حزين ...

– ماذا يا دكتور ؟

– أهي قريبة لكم ؟

– صديقة ..

– كان علينا ان لا نخرجها تحضر الحفلة ..

– قل .. ماذا ؟

– لم تستطع ان تقاوم النوبة الاخيرة ... لا تخبر أهلهـــا الآن في الليل ،.. نحن سنخبرهم في الصباح . .

●

وفتح فم الباص ، يزدرد الفنانين والفنـــانات والمذيعين ... وهبطت درج المستشفى بخطوات متثاقلة ..

وكان المطر يترك حبــاته فوق معطفي الاسود ، فتبرق كالدموع التي في عيني ...

أحياناً .. على العين ان تذرف الدمع الجامد العتيق .. ليحل مـــكانه دمع جديد .. يجمد ..

وسرعان ما يتبـــدل احساسنا بالعالم الخارجي ... هـــذه السروات المتماليات .. حزينات بالنوائح على بعضهن ...

وهذه النسمات التي تصفر ، تصنع الحفيف ، كم هي صالحة لان تكون (اللحن المميز) للموت ..

وهذا الغيم الثقيل .. لماذا يتكدس فوق صدري الضيق ؟

الغيم ثقيل ..

والانجم جبانة ..

إن في اختفاء النجوم ، اظلاماً يبعث على القلق !..

●

وزمجر الباص الضخم .. ولوح لنا مدير المستشفى والاطباء والممرضات مودعين .. شاكرين ..

واخذنا طريقنا الى المدينة ..

وحين كنا في مكان منخفض ، قبل المدينة بقليل ، التفت نحو المصح العالي فاذا بانوار تنطفيء من نافذة .. الى نافذة .. واذا بالسكون يغطي كل العالم ..

●

ووصلنا دار الاذاعة .. وكان علي ان اقرأ النشرة الاخبارية الاخيرة في تلك الليلة .. .

ولما انتهيت سألني زميل :

– ولماذا هذا الحزن الدائم في صوتك ؟

قلت :

– أليس محزناً ان ينقلب اللون الابيض الى لون ازرق ؟

ولم يفهم السائل !..

سوريا – دوما **عبد الهادي البكار**

قبل ان تقرروا كتب التاريخ لمدارسكم راجعوا سلسلة

المصور في تاريخ لبـــنان

● عشرة أجزاء كاملة حتى صف البكالوريا .

● السلسلة التي أوصت بها وزارة المعارف اللبنانية .

دار العلم للملايين